وردة العرب

هى السيدة وردة الشاعرة المشهورة بنت قطب زمانه الشيخ ناصيف اليازجى رحمه الله وشقيقة العلامة الفاضل الشيخ إبراهيم اليازجى. ولدت فى بيروت وتلقت العلوم الابتدائية فى المدرسة الأميركانية السورية ثم قرأت على المرحوم والدها، وكانت على حداثة سنها ذات ذكاء غريب وفكر متقد قالت الشعر فى سن الثالثة عشرة، ولها نوادر كثيرة من بوادر قريحتها التي كانت تدل على مستقبلها دلالة تباشير الصبح على الشمس.

وليس العجيب فى الملكة العربية التى كتبت فيها بل فى بلوغها، وهى لم تقرأ على مدرس شيئًا من العلوم النهائية التى تقتبسها اليوم إلى الدرجة التى صاعدت فيها همم الكبراء من الشعراء من حيث الأساليب فى رصانتها ومتانتها وسلامتها من الشوائب التى تؤخذ على كثير من شعراء هذا الأوان، ومن حيث معانيها التى تقبلها على كل الصور وتبتدعها فى كل نوع من أنواع الحكمة والمديح والرثاء، مما يتجدد به قديمها ويعذب فى الأذواق والأفهام ويعجب له اللبيب المتفنن.

وقد عزمت فى كلامى عن هذه السيدة أن أصفها بما فى صورتها الأدبية، أى شعرها من مظاهر أخلاقها التى تنفرد بها عن أكثر النساء، كما انفردت بالنظم عنهن جميعًا متمثلة فى ذلك بقولها لإحدى السيدات:

يا من جلت در لفظٍ جاء يخبرنا　　عن لطف خلقٍ أتى فى الناس بالعجب

وهى طريقة لا أخشى عنها التكذيب، ولا أرمى بالمبالغة والغلو ولا أتهم كما يتهم سواى من المترجمين فى زيادة شىء لها من عند نفسى، وهى خلو منه وقد بلغنى ممن عرفها واستفاد من أحاديثها حينًا من الزمن بأنها ذات حصافةٍ فى الرأى وجدٍ فى القول ملطف باللين وتهذيب العبارة وبصيرة بالحكمة فى أسرارها والانسجام والسهولة

فى تصوراتها بحيث يأخذها منها السمع كأنها بديهية وهى عين الغرابة.

وتراها مع كبر نفسها وشرف مقامها الأدبى كثيرة الاتضاع حتى لو ذكرت لها حسنة من حسناتها لكدت تظنها جاهلة لها على حد قول المتنبى:

كرمًا فلو حدثته عن نفسهِ بعظيم ما فعلت لظنك كاذبا

أما تربيتها لأولادها فكاملة جرت بها على ما أرادته سليقتها الصحيحة وعرفته بمجرد ذكائها، فشبوا على دماثة فى الأخلاق واتضاع ورصانة فى القول والعمل، وأما معيشتها فغاية فى البساطة، فتمر الأيام وهى تفتح لكل فجر العين التى ينبغى أن تنظر حوادثه بها، وتجوز طريق العمر دون التفات إلى مالايستفاد منه ولها ديوان صغير الحجم لكنه جامع نفائس من درر نظمها غار الدهر أن يحلى بها هذا العصر، فلم يسمح أن يقلد بها جيده، وأننى فيما أرى القارئ من أبياتها الآن لا أريه ألاَّ قول الصبا ومقتبل الشباب، وكنت أتمنى لو أقابل مبلغ شعرها وهى فتية وبين مبلغه الذى كان مقدراً لها مع التقدم فى السن والخبرة والمطالعة، غير أنى اكتفى بما فى السير دليلاً ما كان فى القوة، وأسأل القراء العارفين الذين أطلعوا على ديوانها بم تفوتها الخنساء فى الرثاء إلاَّ بعدد المراثى وبمَ يسبقها الشعراء فى مقامات المديح والتهنئة وما شاكلها من أغراض الشعر إلاَّ بما هو أليق بالرجال، ولا يأتى على لسان المرأة وأى واعظ كان أصيب واعظًا منها فى قولها:

يا حاسبًا دنياك دار قـــرار أقصر عناك فـتلك الأم دارِ

لا تستقر بها النفوس ولا ترى قلبًا بلا غمٍ ولا أكـــــدارِ

أو فى قولها:

زود النفس قبل شد الرجـال إن هذه الحياة طيف خـيالِ

وأصبحن التقى أمامك مصبا حًا لتجلو ظلام تلـك الليـالى

إن فعل الصلاح للناس أولى ذخره من ذخائر الأمـــوالِ

ليس هذى الدنيا بدار قـرار إنها دار وقفةٍ وارتحـــــالِ

وانظر إلى مراثيها فى ذويها تعلم صحة قول العالم أن القلب بئر لا يدرك غوره الإحساس فيها، فإنك لا تتلو المرثية الأولى حتى تقول لم يبقَ للقلب ما يقول إذ أناب مصاب ثان، وقد قالت فى رثاء أخيها حبيبًا:

يا عين وردة فى الأسحار والأصلِ أبكى لفقد حبيبٍ عنكِ مرتحـــل

ويا سلو ابتعد عن مهجتى أبـــدًا ويا دموع انزلى كالعارض الهطلِ

ثم قالت فى رثاء والدها العلامة المرحوم الشيخ ناصيفًا:

تكاثرت الأحزان فى كبدى الحـرى وزادت دموع البين فى عينى الشكرى

وجارت على ضعفى الليالى وأوقدت بطى فؤادى من نوائبها جمـــــرا

فقدت أبى مالى وللعيش بعـــــده فموتى من عيش غدا بعده أحـــرى

حياته الحزين القلب موتٌ وموتـــه حياةٌ يلاقى عندها الراحة الكـــبرى

ثم قالت ترثى المرحوم أخاها نصارا:

ويلاه ويلاه كم نشكو وننتحـــــــب وكم علينا صروف الدهر تنقلبُ

وكم تجور الليالى فى حوادثهـــــا على فؤادٍ بنار الحزن يلتهـــبُ

قد أشعل البين فى قلب الحزين لظـى يزيده دمع عينى وهو ينسكـــبُ

روحى فدى من به أيدى القضا نشبت سهامها بل بقلبى الهم منتشبُ

ثم قالت ترثى شقيقة لها:

متى تترك الأيام دمعى لا يجـــرى وقلبى المعنى لا يبيـــــت على جمر

وهل تنسين ما مضى من مصائبٍ يذوب لها الصلد الأصم من الصخرِ

فليتأمل القارئ بعد هذه الأبيات من قصائد شتى كيف كان الحزن لا يطرق قلب هذه الشاعرة إلاَّ أودى منه زناداً للبلاغة أو أجرى منبعًا للفصاحة فى مقام يضل فيه الرشد وينبض القلب نبضًا مشوشًا للحياة، فلا يتمالك معه من الوزن الرجل، فكيف المرأة وأما فى المديح الذى نظمته هذه السيدة فلا أصف شيئًا بل اكتفى بما قالت:

تدفق فى منازلنا الســرور مساءً حين شرفها الأمــير

وضاءت بهجةً كالصبح لما تجلى فوقها القمر المنيـــر

فلو قدرت ربوع حل فيها لكانت نحو ملقاه تســـيرُ

وقالت:

تجلى وجه مريم يوم عـيدٍ فكان هناك عيدٌ فوق عـــيدِ

جميلة منظر قد تم فيهـا جمال الطبع من لطفٍ وجودِ

وقالت فى الإمبراطورة أوجينى:

فى الشرق شمس للنهار نظيرها فى الغرب شمس ليس يغرب نورها

إن لم تزر هذه البلاد فقد أتت منها مكارمها العظام تزورهـــا

وقولها:

إن كنت تبغى الوصف غير مفندٍ فالهج بأوصاف الأمير محمدِ

علم لقد جمع الفضائل شخصه فأعجب لجمع حاصلٍ فى مفردِ

من قولها فى الوصف لديوان يسمى حلية الطراز:

هذه حلية الطراز أتت مـــن مصر تزهو باللؤلؤ المنظـــوم

حلية للعقول لا حلية الوشى وكنز المنطوق والمفهوم

وقالت فى جواب رسالةٍ:

يا نسمةً من أرض وادى النيل وردت فاطفت بالسلام غليلى

هى نسمة من روح أكرم روضةً يحيى شذاها روح كل عليلِ

ومن عجيب ما أتت به قولها تاريخًا لإنشاء جمعية خيرية فى سوريا:

وكذاك قال الله فى تاريخه من يرحم المسكين يقرض ربه

ولها من المنظومات والتواريخ كثير وقفت عند هذا الحد من ذكر بعضه، فاسأل للشرق أن يتم عليه نعمته فى هذه الأيام بكثيرات يهتدين بنور تلك النجمة اليازجية التى خلدت لها ذكرًا جميلاً وكفاها فخرًا بأنها امرأة فاقت الرجال وبارت الغربيات فى أنبل مجال.

لحضرة الكاتبة الفاضلة الآنسة استير ازهرى فى بيروت

"الفتاة"

أهلاً بزايرةٍ وافتنا ترفل بحلل أبهى من استبرق خوى وأجمل من ديباج صنعاء وتزدهى بحلى ما ازدهت بمثلها حسناء، وهى الفتاة أتتنا سحرًا تعطر أرجاءنا بعبير أذكى من الورد والخزام، وتنثر علينا من الألفاظ آيات بينات حاكت السحر الحلال رقةً